سلم الخاسر إذا ركب إلى دار الخلافة يأتى على برذون وعليه حلة تساوى ألف دينار ، والطيب ينفح من ثيابه ، ويأتى هو فى شر حالة وأسوئها . وخرج يوماً إلى المهدى فقالت امرأة من أهله : إن أطلق لك الخليفة شيئاً فاجعل لى منه شيئاً . فقال : إن أعطانى مائة ألف درهم فلك درهم . فأعطاه ستين ألفاً فأعطاها أربعة دوانيق . توفى ببغداد فى هذه السنة ، ودفن فى مقبرة نصر بن مالك .

﴿ والقاضى أبو يوسف ﴾

واسمه يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد بن حسنة ، وهى أمه ، وأبوه بجير بن معاوية ، استصغر يوم أحد ، وأبو يوسف كان أكبر أصحاب أبى حنيفة ، روى الحديث عن الأعمش وهمام ابن عروة ومحمد بن إسحاق ويحيى بن سعيد وغيرهم . وعنه محمد بن الحسن وأحمد بن حنبل ويحيى ابن معين . قال على بن الجعد : سمعته يقول : توفى أبى وأنا صغير فأسلمتنى أمى إلى قصار فكنت أمر على حلقة أبى حنيفة فأجلس فيها ، فكانت أمى تتبعنى فتأخذ بيدى من الحلقة وتذهب بى إلى القصار ، ثم كنت أخالفها فى ذلك وأذهب إلى أبى حنيفة ، فلما طال ذلك عليها قالت لأبى حنيفة : إن هذا صبى يتيم ليس له شئ إلا ما أطعمه من مغزلى ، وإنك قد أفسدته على . فقال لها : اسكتى يا رعناء ، هاهوذا يتعلم العلم وسيأكل الفالوذج بدهن الفستق فى صحون الفيروزج . فقالت له : إنك شيخ قد خرفت . قال أبو يوسف : فلما وليت القضاء ـ وكان أول من ولاه القضاء الهادى وهو أول من لقب قاضى القضاة ، وكان يقال له : قاضى قضاة الدنيا ، لأنه كان يستنيب فى سائر الأقاليم التى يحكم فيها الخليفة ـ . قال أبو يوسف : فبينا أنا ذات يوم عند الرشيد إذ أتى بفالوذج فى صحن فيروزج فقال لى : كل من هذا ، فانه لا يصنع لنا فى كل وقت . وقلت : وما هذا يا أمير المؤمنين ؟ فقال : هذا الفالوذج . قال فتبسمت فقال : مالك تتبسم ؟ فقلت : لا شئ أبقى الله أمير المؤمنين . فقال : لتخبرنى . فقصصت عليه القصة فقال : إن العلم ينفع ويرفع فى الدنيا والآخرة . ثم قال : رحم الله أبا حنيفة ، فلقد كان ينظر بعين عقله ما لا ينظر بعين رأسه . وكان أبو حنيفة يقول عن أبى يوسف : إنه أعلم أصحابه . وقال المزنى : كان أبو يوسف أتبعهم للحديث . وقال ابن المدينى : كان صدوقا . وقال ابن معين : كان ثقة . وقال أبو زرعة : كان سليما من التجهم . وقال بشار الخفاف : سمعت أبا يوسف يقول : من قال القرآن مخلوق فحرام كلامه ، وفرض مباينته ، ولا يجوز السلام ولا رده عليه . ومن كلامه الذى ينبغى كتابته بماء الذهب قوله : من طلب المال بالكيما أفلس ، ومن تتبع غرائب الحديث كذب ، ومن طلب العلم بالكلام تزندق . ولما تناظر هو ومالك بالمدينة بحضرة الرشيد فى مسألة الصاع وزكاة الخضراوات احتج مالك بما استدعى به من تلك الصيعان المنقولة عن آبائهم وأسلافهم ، وبأنه لم يكن الخضراوات يخرج فيها شئ فى زمن الخلفاء الراشدين . فقال

أبو يوسف : لو رأى صاحبي ما رأيت لرجع كما رجعت . وهذا انصاف منه .

وقد كان يحضر فى مجلس حكمه العلماء على طبقاتهم ، حتى إن أحمد بن حنبل كان شابا وكان يحضر مجلسه فى أثناء الناس فيتناظرون ويتباحثون ، وهو مع ذلك يحكم ويصنف أيضا . وقال : وليت هذا الحكم وأرجو الله أن لا يسألنى عن جور ولا ميل إلى أحد ، إلا يوما واحداً جاءنى رجل فذكر أن له بستانا وأنه فى يد أمير المؤمنين ، فدخلت إلى أمير المؤمنين فأعلمته فقال : البستان لى اشتراه لى المهدى . فقلت : إن رأى أمير المؤمنين أن يحضره لأسمع دعواه . فأحضره فادعى بالبستان فقلت : ما تقول يا أمير المؤمنين ؟ فقال : هو بستانى . فقلت للرجل : قد سمعت ما أجاب . فقال الرجل : يحلف ، فقلت ، أتحلف يا أمير المؤمنين ؟ فقال : لا ، فقلت سأعرض عليك اليمين ثلاثا فان حلفت وإلا حكمت عليك يا أمير المؤمنين . فعرضتها عليه ثلاثا فامتنع فحكمت بالبستان للمدعى . قال : فكنت فى أثناء الخصومة أود أن ينفصل ولم يمكنى أن أجلس الرجل مع الخليفة . وبعث القاضى أبو يوسف فى تسليم البستان إلى الرجل .

وروى المعافى بن زكريا الجريرى عن محمد بن أبى الأزهر عن حماد بن أبى إسحاق عن أبيه عن بشر بن الوليد عن أبى يوسف . قال : بينا أنا ذات ليلة قد نمت فى الفراش ، إذا رسول الخليفة يطرق الباب ، فخرجت منزعجا فقال : أمير المؤمنين يدعوك ، فذهبت فاذا هو جالس ومعه عيسى ابن جعفر فقال لى الرشيد : إن هذا قد طلبت منه جارية يهبنيها فلم يفعل ، أو يبعنيها ، وإنى أشهدك إن لم يجبنى إلى ذلك قتلته . فقلت لعيسى : لم لم تفعل ؟ فقال : إنى حالف بالطلاق والعتاق وصدقة مالى كله أن لا أبيعها ولا أهبها . فقال لى الرشيد : فهل له من مخلص ؟ فقلت : نعم يبيعك نصفها ويهبك نصفها . فوهبه النصف وباعه النصف بمائة ألف دينار ، فقبل منه ذلك وأحضرت الجارية ، فلما رآها الرشيد قال : هل لى من سبيل عليها الليلة ؟ قلت : إنها مملوكة ولا بد من استبرائها ، إلا أن تعتقها وتتزوجها فان الحرة لا تستبرأ . قال فأعتقها وتزوجها منه بعشرين ألف دينار ، وأمر لى بمائتى ألف درهم وعشرين تختا من ثياب ، وأرسلت إلىّ الجارية بعشرة آلاف دينار .

وقال يحيى بن معين : كنت عند أبى يوسف فجاءته هدية من ثياب ديبقى وطيب وفانيل ند وغير ذلك ، فذاكرنى رجل فى إسناد حديث «من أهديت له هدية وعنده قوم جلوس فهم شركاؤه » فقال أبو يوسف : إنما ذاك فى الأقط والتمر والزبيب ، ولم تكن الهدايا فى ذلك الوقت ماترون ، ياغلام ارفع هذا إلى الخزائن ، ولم يعطهم منها شيئا . وقال بشر بن غياث المريسى : سمعت أبا يوسف يقول : صحبت أبا حنيفة سبع عشرة سنة ثم انصبت على الدنيا سبع عشرة سنة ، وما أظن أجلى إلا أن اقترب . فما مكث بعد ذلك إلا شهوراً حتى مات .

وقد مات أبو يوسف فى ربيع الأول من هـذه السنة عن سبع وستين سنة ، ومكث فى القضاء بعده ولده يوسف . وقد كان نائبه على الجانب الشرقى من بغداد . ومن زعم من الرواة أن الشافعى اجتمع بأبى يوسف كما يقوله عبد الله بن محمد البلوى الكذاب فى الرحلة التى ساقها الشافعى فقد أخطأ فى ذلك ، إنما ورد [الشافعى] بغداد فى أول قدمة قدمها إليها فى سنة أربع وثمانين . وإنما اجتمع الشافعى بمحمد بن الحسن الشيبانى فأحسن إليه وأقبل عليه ، ولم يكن بينهما شنآن كما يذكره بعض من لا خبرة له فى هذا الشأن والله أعلم . وفيها توفى :

﴿ يعقوب بن داود بن طهمان ﴾

أبو عبد الله مولى عبد الله بن حازم السلمى ، استوزره المهدى وحظى عنده جداً ، وسلم إليه أزمة الأمور ، ثم لما أمر بقتل ذلك العلوى كما تقدم فأطلقه ونمت عليه تلك الجارية سجنه المهدى فى بئر و بنيت عليه قبة ، ونبت شعره حتى صار مثل شعور الأنعام ، وعمى ، ويقال بل غشى بصره ، ومكث نحواً من خمسة عشر سنة فى ذلك البئر لا يرى ضوءاً ولا يسمع صوتا إلا فى أوقات الصلوات يعلمونه بذلك ، ويدلى إليه فى كل يوم رغيف وكوز ماء ، فمكث كذلك حتى انقضت أيام المهدى وأيام الهادى وصدر من أيام الرشيد ، قال يعقوب : فأتانى آت فى منامى فقال :

عسى الكرب الذى أمسيت فيه * يكون وراءه فرج قريب
فيأمن خائف ويفك عانٍ * ويأتى أهله النائى الغريب

فلما أصبحت نوديت فظننت أنى أعلم بوقت الصلاة ، ودلى إلىّ حبل وقيل لى : اربط هذا الحبل فى وسطك ، فأخرجونى ، فلما نظرت إلى الضياء لم أبصر شيئاً ، وأوقفت بين يدى الخليفة فقيل لى : سلم على أمير المؤمنين ، فظننته المهدى فسلمت عليه باسمه ، فقال : لست به ، فقلت الهادى ؟ فقال : لست به . فقلت : السلام عليك يا أمير المؤمنين الرشيد . فقال : نعم ، ثم قال : والله إنه لم يشفع فيك عندى أحد ، ولكنى البارحة حملت جارية لى صغيرة على عنقى فذكرت حملك إياى على عنقك فرحمت ما أنت فيه من الضيق فأخرجتك . ثم أنعم عليه وأحسن إليه . فغار منه يحيى بن خالد بن برمك ، وخشى أن يعيده إلى منزلته التى كان عليها أيام المهدى ، وفهم ذلك يعقوب فاستأذن الرشيد فى الذهاب إلى مكة فأذن له ، فكان بها حتى مات فى هذه السنة رحمه الله . وقال يخشى يحيى أن أرجع إلى الولايات لا والله ما كنت لأفعل أبداً ، ولو رددت إلى مكانى . وفيها ﴿ توفى يزيد بن زريع ﴾ أبو معاوية شيخ الامام أحمد بن حنبل فى الحديث ، كان ثقة عالما عابداً ورعا ، توفى أبوه وكان والى البصرة وترك من المال خمسمائة درهم ، فلم يأخذ منها يزيد درهما واحدا ، وكان يعمل الخوص بيده و يقتات منه هو وعياله . توفى بالبصرة فى هذه السنة ، وقيل قبل ذلك فالله أعلم .